جدلية الحوار حول اطروحة ماكس فيبر «الاخلاق البروتستانتية وروح الرأسمالية»

إبراهيم الحيدري
معهد علم الاجتماع ـ جامعة عنابة

اذا كانت شهرة ماكس فيبر العلمية قد ارتبطت بنظرية الفعل الاجتماعي باعتبارها الاطار المرجعي لفهم المعنى الذاتي للسلوك الانساني، فان نظرية الفعل الاجتماعي نفسها تعود في جذورها الى اطروحة فيبر عن «الاخلاق البروتستانتية وروح الرأسمالية» (Weber, 1922). ذلك العمل الذي يعد جزءا محددا ولكنه محوري من عمله الكبير في علم الاجتماع الديني (Weber, 1920)، الذي عالج فيه فيبر دوافع الفعل الديني في عدد من الاديان الكبرى، كالهندوسية والبوذية والكونفوشيوسية والتاوية، الى جانب الديانات السماوية الأخرى، كاليهودية والمسيحية والاسلام، التي تفرض على الباحث الاجتماعي ان يبدأ بها عند معالجته لمقولة «الاخلاق البروتستانتية وروح الرأسمالية» ، التي طرح فيها نظريته الذائعة الصيت والتي مؤداها، أن النظام الرأسمالي الحديث، الذي تطور خلال القرنين السادس عشر والسابع عشر في اوروبا، يعود في روحه الى الاخلاق البروتستانتية، تلك الاخلاق الدينية التي انتجت قيما ومعايير شجعت العمل الحر والتنسك والادخار وبذلك خلقت مناخا ذهنيا خالصا ساعد بدوره على تطور «المشروع الاقتصادي الحر» وبالتالي على نمو وتطور الرأسمالية في الغرب. وانطلاقا من هذه المقولة فقد ذهب ماكس فيبر الى ان الأديان الاخرى ـ بعكس البروتستانتية ـ لم تستطع خلق قيم ومعايير او اخلاق تشجع على العمل الحر والتنسك والادخار وتراكم الثروة. فالبوذية على سبيل المثال قامت على التقشف والزهد في الحياة دون الاهتمام بالعمل الحر، والاسلام لم يكن دينا تنسكيا، ولكنه بنفس

الوقت لم يشجع على العمل الحر والادخار. أما اليهودية فقد شجعت على العمل الحر والادخار ولكنها لم تستطع خلق قيم واخلاق تنسكية، وبذلك لم تستطع تلك الاديان ان تلعب دورا مهما في تطور المشروع الاقتصادي الحر ونمو الرأسمالية.

لقد نظر فيبر الى الاسلام باعتباره دينا يتعارض مع المذهب الطهري ـ البيوريتاني [1] الذي يقوم على الفضيلة. فالاسلام ـ حسب فيبر ـ دين يحترم التمتع بمباهج الحياة ومتعها وجعلها هدفا له في الحياة الدنيا، وبصورة خاصة بالنسبة للنساء والملكية الخاصة، ومعنى هذا عدم وجود اخلاق تنسكية. وهذا مايؤكده القرآن كتاب الاسلام المقدس، حيث لايوجد في نصوصه تناقض بين الأوامر الاخلاقية والعالم. ويصل فيبر الى نتيجة هي ان السلوك التنسكي لايرتبط بالاسلام، كما ان هذا السلوك ساعد على عدم تطور عقلانية رأسمالية في المجتمع الاسلامي تأثرت بفعل الاخلاق الدينية في الاسلام. كما تعرض فيبر الى النظام الاقطاعي في الاسلام واشار إلى انه، بالرغم من دفع الضرائب الى السادة، ملاك الأرض، وتطور نظام بيروقراطي خلال العصر العباسي والعصر المملوكي والعثماني، الا ان هذه البيروقراطية لم تتحول الى بيروقراطية رأسمالية عقلانية، لأن النظامين العسكري والاقتصادي، في الدولة الاسلامية، لم يكونا منسجمين مع تطور الرأسمالية وذلك راجع الى ان الشروط الاجتماعية والاقتصادية التي توفرت للاقطاع الأوروبي، لم تكن مهيأة، بل وقفت حاجزا ضد نمو الاقطاع في الشرق. وان الاقتصاديين الكلاسيكيين، ومنهم كارل ماركس، كانوا قد تصوروا خطأ بان هناك تضاداً قوياً بين الاقطاع الاوروبي والاستبداد الشرقي (نمط الانتاج الاقتصادي). وحسب فيبر فان الاستبداد الشرقي كان عاملا مهما من عوامل الركود الاقتصادي الذي وقف موقفا معاديا لنمو الرأسمالية في الاسلام (Schluchter, 1984). أما في الغرب فقد استطاعت الاخلاق البروتستانتية ان تخلق قيما جديدة للعمل الحر ارتبطت بالتنسك العقلاني، لأن هذه الاخلاق لم تكن سوى جزء من العقلانية الأوروبية التي امتدت في جذورها الى الفلسفة الاغريقية. ومن الممكن استنتاج ذلك من مواقف العقلانية ونظرتها الى الحياة والمشاكل الاساسية التي ارتبطت بها.

لقد انطلق ماكس فيبر في اطروحته عن «الاخلاق البروتستانتية وروح الرأسمالية» من ملاحظته الدقيقة بأن المقاطعات التي تسود فيها العقيدة الكاثوليكية بصورة عامة، هي مقاطعات أقل تطورا من الناحية الاقتصادية والصناعية على وجه الخصوص من المقاطعات التي تسود فيها العقيدة البروتستانتية. وقد قرر بأن العلاقة بين البروتستانتية والتطور الاقتصادي والصناعي يمكن ملاحظتها تاريخيا وعلى المستوى الاوروبي. وجد فيبر بأن اولى الدول الصناعية، واولى الشعوب التي تطورت فيها الرأسمالية، هي دول الاراضي المنخفضة ـ هولندا وبلجيكا اليوم ـ وكانت بروتستانتية، وكذلك انجلترا البروتستانتية،

مع العلم بأن الدول الكاثوليكية الغنية مثل ايطاليا واسبانيا والبرتغال كانت قد لحقت بها في زمن متأخر. ان هذه العلاقة الفريدة التي لايمكن ادراكها بسهولة، والتي تربط بين العقيدة البروتستانتية والتطور الاقتصادي، اصبحت هدف ماكس فيبر ومحور نظريته في نشوء وتطور الرأسمالية الحديثة (Hauck, 1984:71). فما هي اصول هذه العلاقة الفريدة؟.

من اجل توضيح فرادة هذه العلاقة بدأ ماكس فيبر بدراسة علاقات الانتاج الاجتماعية والاقتصادية لما قبل الرأسمالية في اوروبا ووجد بأن التطور الاقتصادي في اوروبا كان قد ارتبط بذهنية اقتصادية لها خصوصية معينة، ولكنها غير طبيعية، وتعبر عن نفسها ـ حسب فيبر ـ بأن هدفها الاساسي ليس الحصول على الربح، والربح الوفير، وان هذه الخصوصية كانت قد ظهرت في جميع المجتمعات التي قامت بمشاريع اقتصادية حرة. ولقد كان الرأسماليون الاوائل في القرنين السادس عشر والسابع عشر يطمحون في الحصول على الربح والفوائد، الا ان هذا الربح وهذه الفوائد لم تكن هدفا لذاتها، او بمعنى آخر لم تكن هذه الفوائد والارباح وسيلة لاشباع الحاجات الاستهلاكية الذاتية، وهذه الخصوصية ميزت اولئك التجار الرأسماليين الأوائل عن تجار المفرد وكل التجار الصغار في العصور القديمة.

لقد كان الهدف الأساسي في جمع الثروة ـ قبل هذا التاريخ ـ هو الاستهلاك الذاتي. وفي الوقت الذي كان فيه النبلاء وكذلك اصحاب التجارة الخارجية بصورة عامة، وفي المرحلة الاخيرة من العصور الوسطى، قد جمعوا الثروة من اجل ان يستمتعوا بها ومن اجل ان يعيشوا بواسطتها حياة مترفة. الا ان الرأسماليين الأوائل، الى جانب اهتمامهم بجمع الثروة، كانوا مقتصدين الى حد بعيد بحيث اعتبروا ان اي استهلاك يخرج عما هو ضروري كأنه تبذير. وقد شاع المثل حينذاك، بأن كل فلس يحصل عليه المرء يجب ان يوظف في التجارة، وان كل مايوظفه المرء يجب ان يتحول الى نقود، وان تستخدم هذه النقود من اجل الحصول على نقود اكثر. وهذا ما دعاه كارل ماركس، «تراكما من اجل ارادة تراكم الثروة» وبهذا فلم يختلف كارل ماركس عن ماكس فيبر في وصف خصوصية واضحة المعالم للرأسماليين الأوائل الا قليلاً، وكذلك وصفه للرأسمالية الحديثة بأنها «تنظيم عقلاني للعمل الحر»، التي اراد ماكس فيبر ان يعطي لها نفس المعنى الذي عناه ماركس تقريبا (Hauck, 1984: 72).

ومن نافلة القول ان نشير الى ان ماكس فيبر كان قد اتبع الاتجاه التاريخي مثلما اتبعه كارل ماركس من قبل، ذلك الاتجاه الذي ارتبط بالفكر الاجتماعي والفلسفي الألماني فوضع مخططه لتطور روح الرأسمالية بعد ربع قرن تقريبا من وضع كارل ماركس لكتابه المشهور «رأس المال [2]». وكانت نظرية كارل ماركس في نشوء وتطور الرأسمالية قد اثارت

ردود فعل عنيفة في اوروبا وبصورة خاصة عند ماكس فيبر، بحيث ان عددا من المفكرين اعتبروا «الاخلاق البروتستانتية وروح الرأسمالية» ماهي الا رد على النظرية الماركسية (Von Wiese, 1960:138).

لقد عاد ماكس فيبر الى حركات الاصلاح الديني ـ من لوثر الى كالفن ـ ليبحث في عقيدتها عن الخطوط التي يوثق بها العلاقة التي ربطت بين العقيدة الدينية البروتستانتية وبين روح الرأسمالية. فالصراع العنيف بين الدولة القومية الجديدة والكنيسة، والاحداث المتتالية التي شهدتها اوروبا خلال القرن السادس عشر، كان لها اثر بعيد في تغيير الذهنية الاقتصادية للعصور الوسطى. وكانت حركات الاصلاح الديني وعلى رأسها الحركة التي قادها مارتن لوثر (1483-1546) ضد الكنيسة الكاثوليكية والتي اعلن فيها الحرب ضد البابوية والكهانة والتي دعمت من قبل الحركة القومية والحركة الطهرية في انجلترا والاراضي المنخفضة، وكذلك من الطبقة الوسطى الناشئة، مثلما دعمت من قبل الملوك والامراء الذين كانوا يتطلعون الى مخلص ينقذهم من سيطرة الكنيسة وابوتها ومفاسدها. الا ان تعاليم لوثر لم يكن لها ذلك المفعول القوي مثلما فعلته تعاليم يوهانس كالفن (1509-1564) الذي اضاف الى تعاليم لوثر قيما دينية واقتصادية جديدة حيث كتب كالفن عام 1536 حول «مؤسسة المسيح» على اساس الاعتقاد بأن الانجيل هو الينبوع الوحيد والاصيل للحقيقة الدينية. ومن الحركة الكالفنية تفرعت البيوريتانية والتنسكية وغيرها من الحركات الطهرية (Philosophisches Wörterbuch, 1965:80-81).

انطلقت التعاليم الكالفينية الالهية من ان الله كان قد قدر مشيئته الالهية منذ بدء الخليقة، فترك رحمته تنزل على قسم من خلقه واصطفاهم على خلقه وجعل منهم كفارا مدنسين فنزلت عليهم اللعنة الأبدية. ان هذا الغموض المطلق للتعاليم الالهية لايجعل من السلوك الانساني وسيلة لانقاذ النفوس، بل ينتج عن ذلك، ارتياب مطلق بحيث لايستطيع المرء ان يعرف ما اذا كان منتميا الى المقدسين او الى المدنسين. الا ان مثل هذه الحيرة ـ حسب فيبر ـ التي لم يستطع المرء تحملها دفعت به الى ان يبحث عن علامات يمكن ان تشير الى اولئك المختارين، والتي تزيد في الاعتقاد بأن الحياة على هذه الارض، وفي عيشة كريمة، تعني الاستغناء عن الراحة وعن التمتع بمباهج الحياة، ومن اجل العمل المثابر الدؤوب، وهذا دليل على ان المرء هو من اولئك المختارين المقدسين. وهكذا دفعت التعاليم الالهية المتطهر الكالفني الى ان يتحكم في نفسه ويخشى غرائزه واهواءه، وان يجعل من نفسه مستقلا فلا يثق الا في نفسه، وان يفكر بجد فيحسب لكل شيء حسابا قبل ان يبدأ فيه، مثلما يفعل الرأسمالي اليوم (Hauck, 1984:73; Aron, 1966:112). وهكذا دفعت التعاليم الالهية الكالفنية الى التقشف والزهد في الحياة، ولكن ليس كالتقشف والزهد في نظام الكهنة الكاثوليكي الذي يهدف الى خدمة التأمل، فاذا اراد المرء ان يقترب من الله

عن طريق التأمل، فسوف تصبح العقيدة الالهية خرافة، مثل الأمل في التقرب من الاسرار الملعونة. ان تنسك المختارين هو تنسك داخل هذا العالم، وهو تنسك اختياري في الحياة المهنية الذي لايتطلب عبقرية دينية، مثلما هي عند الكهنة، وانما هو تنسك يخص جميع المختارين. ان هذه الاهمية الخاصة التي اعطاها فيبر للذهنية الاقتصادية الجديدة جاءت نتيجة البحث عن الأدلة والمؤشرات من قبل المختارين. وقد وجد المرء مثل هذه الادلة والمؤشرات في التعاليم الالهية الكالفنية. يقول كالفن: «وعندما يريكم الله طريقا خاليا من الآلام لخلاص ارواحكم او ارواح الآخرين، وفي طريقة قانونية تستطيعون بموجبها الحصول على ارباح اكثر من غيرها من الطرق، فان هذا لبرهان لكم.. ومن اجل الله ينبغي عليكم ان تعملوا حتى تصبحوا اغنياء» (Weber, 1922:176). لقد دعا كالفن الى مساهمة الجميع في الحياة الاقتصادية مساهمة فعالة، الى جانب تأكيده على حياة الزهد والتنسك والادخار، واضاف الى التعاليم الاصلاحية البروتستانتية ـ اللوثرية ـ مبدأ جديدا ومهما في تاريخ التطور الاقتصادي للرأسمال الفردي هو اباحته لمبدأ الربا على القروض، الذي حرمته المسيحية الكاثوليكية مثلما حرمته باقي الاديان السماوية الاخرى. وهذا التدبير الديني لتبرير الربا، كسلوك اقتصادي جديد، يمثل بالضبط السعي المتواصل للرأسماليين الأوائل للحصول على الربح، ليس من اجل التمتع به، وانما من اجل الارادة الذاتية نفسها، بحيث اصبحت الثروة والغنى مؤشرا للمختارين، وهذا بالنسبة للرأسماليين الأخرين، من جهة اخرى، ماهو الا ضمير منافق في كسب الثروة واحتيازها (Hauck, 1984:73).

لقد اتحد البيوريتانيون الطهريون لكي تتهيأ لهم افضل الفرص لتحقيق طموحاتهم في هذا العالم، ولم يتراجعوا عن الحالة الطبيعية للانسان المستكين، اذ باستطاعة الفرد ان ينتج الثروة ويكدسها وذلك تحقيقا للنداء الذي اختص به المختارون والاصفياء، ولكن عليهم ان لايفعلوا ذلك في سبيل الانفاق والتبذير على الملذات. ان هذا المفهوم الايديولوجي الجديد كان قد اوصل البيوريتانيين المطهرين الى رفض السلوك التقليدي، وبذلك تمكنوا من ايجاد شرعية جديدة لهدم التقاليد القديمة الموروثة، وبنفس الوقت اضفاء اخلاقية جديدة على تقسيم العمل الاجتماعي الجديد واضفاء العناية الالهية على عملية تكوين الثروة وتراكمها. هذه الاخلاقية كانت قد دفعت البيوريتانيين الى رفض اسلوب الاحتكار الذي ساد منذ زمن تيودور ستيورات، والمتمثل بسيطرة الدولة على وسائل الانتاج (Weber,1922:150-152). هذه الايديولوجية الجديدة كانت قد الزمت البيوريتانيين المطهرين بالقيام بنشاط تنسكي في عملهم المهني ودفعهم هذا التنسك الى ان يخضعوا الى درجة لايمكن قياسها الى مبادىء التصنيع الرأسمالية الصارمة (Hauck, 1984:73).

ربط ماكس فيبر «الذهنية البروتستانتية» بالعقلانية الأوروبية، حيث ظهرت النزعة

الى عقلنة الحياة في هذا العالم كشرط روحي أولي ومهم في نشوء الرأسمالية، لأن الكالفنية كانت قد وجهت الناس ليس الى العمل والكد فحسب، بل الى ان يقيموا كل مايقومون به بالنقود، وان لايبذروا أية دقيقة من وقتهم، وان لايفوتوا من ايديهم أية فرصة من فرص الربح. ان هذا التخطيط العقلاني المنظم للسلوك داخل هذا العالم اطلق عليه فيبر «عقلانية السيطرة على العالم»، للتمييز بين العقلانية كتخطيط منظم للسلوك داخل هذا العالم، وبين التخطيط المنظم للسلوك خارج هذا العالم، والذي يتمثل بالتقشف التأملي في ظل نظام الكهنوت الكاثوليكي (Weber, 1922:10f).

كانت الكاثوليكية وسيلة للخلاص ايضا، ولكن فقط عن طريق الاعتراف بالخطايا والذنوب، لذا كانت القوة القدسية للكهان تعتمد على رواسب الاعتقاد بالسحر الذي يقدم لهم نوعا من الراحة النفسية، وهذا مادفع فيبر الى نعت الكاثوليكية بكونها اخلاقية ولكنها ليست عقلانية. وقد كان لوثر اول من رفض الاعتقاد بالسحر وسخر من اولئك الذين يعتقدون به وبأن الكنيسة تمتلك قوة سحرية، مثلما وقف امام الاعتقاد الكاثوليكي الذي يخلص الناس عن طريق رحمة السماء. فالعناية الالهية تتوجه نحو الارض، لأن الله هو الذي يمنح الشرعية للنظام الاجتماعي وليس الكهنة والرهبان. وهذه القناعة الذاتية وقفت امام قوة السحر وساعدت على نمو النزعة العقلانية.

بهذا السلوك العقلاني الرشيد فقط استطاعت اوروبا ـ حسب فيبر ـ ان تصل الى ماوصلت اليه وما أحرزته من خصوصية، تلك الخصوصية التي ميزتها عن جميع الحضارات. وقد أكد فيبر بأن «تطور روح الرأسمالية» يمكن فهمها فهما افضل بوصفها جزءا من تطور العقلانية الاوربية ونموها ككل. ويمكن استنتاج ذلك من موقف العقلانية ونظرتها الى الحياة والمشاكل الاساسية التي ترتبط بها والتي تمثلت في شغل الانسان الشاغل في كسب الربح، بحيث اصبح الربح والسعي الى تراكم رأس المال هو الغاية القصوى في حياة البيوريتانيين. ان هؤلاء الناس لايعرفون التمتع بمباهج الحياة، فالحياة عندهم لاتعرف إلا بالانجاز، والناس يسعون للكسب واحتياز الثروة، وهم في سعي، دائم ودؤوب، وفي قلق مستمر للحصول على الحد الاقصى من الربح، في اقصر وقت ممكن. ان هذا العمل الدؤوب يتطلب منتهى الكفاية والتصرف بصورة منتظمة وعقلانية، ويولد نظاما من السلوك الذي يقيم بحسابات تجارية وتنبؤات بتصرفات الآخرين، من اجل ترشيد المصالح وعقلنتها، مثلما يقوم على اقصى تقدير في الدقة والصدق في العمل والاستقامة والابتكار والتلاؤم مع الظروف الجديدة. وقد اكد فيبر، على ان الرأسمالي يجب ان يكسر شوكة التقاليد البالية اذا وقفت عائقا في وجه صعوده في سلم الثروة. هذه القيم الجديدة هي ليست جشعا، فالجشع امر غير عقلي وهو صفة المجتمعات التقليدية المتخلفة، لأن الهدف منه هو هدف عملي، وهو تجميع الثروة وتراكمها تراكما افضل عن طريق العمل

العقلاني الحر، وهو هدف اخلاقي في الاخير (تشوداك 1980:222-223). بهذه العقلانية التي تريد السيطرة على العالم نظر فيبر الى ماحرزته اوروبا من تقدم اقتصادي وتطور مستمر في المشروع الرأسمالي الحر. وان جميع محاولاته وحججه حول تأثير القيم الدينية في الهند والصين واسرائيل القديمة والاسلام ماهي الا محاولات لاثبات فرادة العقلانية الأوروبية تاريخيا(Hauck, 1984:75).

ان اطروحة ماكس فيبر حول «الاخلاق البروتستانتية وروح الرأسمالية» تبقى نظرية ذات جانب واحد حين تؤكد على حتمية الفكر باعتباره مصدرا وحيدا للمعرفة، منطلقة من كون الذهنية البروتستانتية هي المحرك الاساسي لنمو النظام الرأسمالي، دون ان تأخذ بنظر الاعتبار العوامل الأخرى. هذه القضية كانت في الحقيقة ولاتزال موضع نقد ونقاش حادين تاريخيا ونسقيا ومنهجيا. ومن المعروف أن هناك عوامل عديدة ساعدت، ان لم تكن قد حركت نمو المشروع الاقتصادي الحر، كانفصال العمل اليدوي عن العمل الحرفي، وتطور المانيفكتورة وتدفق المعادن والمواد الاولية والنقود ونظام الصيرفة وما رافق ذلك من تطور ثقافي وعلمي وتكنولوجي. والى جانب ذلك فقد وجهت انتقادات اخرى الى مفهوم فيبر حول «العقلانية الاوروبية» وفرادتها وتعصبه لها، انطلاقا من فكرة التمركز الاوروبي التي سيطرت على الفكر الأوروبي.

لقد اثارت اطروحة فيبر اهتمام عدد كبير من الباحثين، وفي مختلف الميادين وولدت اتباعا من المتحمسين لافكاره مثلما ولدت نقادا اشداء له من المحاربين. وكانت اولى الانتقادات التي وجهت اليه من قبل كارل كاوتسكي (1854-1938) الذي قارن بين نظرية ماكس فيبر عن نشوء الرأسمالية وبين التفسير المادي للتاريخ مفنداً فرضية فيبر بأن ظهور الذهنية الاقتصادية الجديدة كان قد سبق نشوء اسلوب الانتاج الرأسمالي. وقد كتب بأن الذهنية الاقتصادية التي اعتبرها فيبر خاصية من خواص الكالفنية انما كانت نظرة اقتصادية - اجتماعية لمرتبة العمال اليدويين العاميين في المدن خلال الفترة التي سبقت تطور الرأسمالية في الصناعة مباشرة. وان هذه الذهنية الاقتصادية كانت اقدم من الكالفنية، وتمثلت بروح التمرد عند الحرفيين ضد استغلال وتبذير الاقطاع والكنيسة والامراء المرابين والعمل الشاق والاقتصاد والتراكم المنتج. ان هذه الافكار كانت قد انبعثت عن العلاقات الاقتصادية - الاجتماعية، بحيث ان الروح الدينية - الاخلاقية لاتجد تفسيرا لها في التطور التلقائي للدين والاخلاق، بل في الظروف الحية للطبقة الصاعدة من الحرفيين الذين كانوا يملكون الارادة للتخلص من حكم الاشراف الاقطاعيين. وقد اضاف كاوتسكي بأن فيبر كان قد كتب عن هذا شيئا كثيرا مما هو مهم وعميق الا انه لم يحطم التفسير المادي للتاريخ او الصورة التي عرضها ماركس في كتابه «رأس المال» عن نشوء الرأسمالية (لانكة، 248:1978).

وبنفس السياق كتب لانكة (243:1978) في كتابه «الاقتصاد السياسي»، بأن ماكس فيبر كان قد استمد تفسيره للتطور الاقتصادي من المثالية الموضوعية التي تعود في اصولها الى هيجل، الذي جعل لكل حقبة تاريخية روحها الخاصة بها والتي تكونت من مجموعة من النظرات النفسانية التي تخلع على كل حقبة طابعها الخاص. وهنا يكمن مفتاح فهم التطور الاقتصادي عند فيبر، ليس في اسلوب الانتاج، بل في النظرات النفسانية التي تقوم الروح لحقبة تاريخية معينة. وبهذا جعل فيبر الرأسمالية ابنة ثورة في الذهنية الاقتصادية الناتجة عن حركة الاصلاح الديني التي تعود في اصولها وتطورها الى افكار بروتستانتية. وبهذا الصدد فقد اشار فردريك انجلز الى ان الكالفنية كانت قد مثلث ايديولوجية الطبقة الوسطى النامية حينذاك. وقد كتب انجلز، كان لكالفن قصب السبق. فقد كان مذهب كالفن يصلح لأن يكون برجوازية لذلك الزمان، وكان مذهبه في القضاء والقدر التعبير الديني عن حقيقة ان النجاح والفشل في العالم التجاري لايتوقف على نشاط الانسان او ذكائه، بل على ظروف لايسيطر عليها. . وقد وجدت الوثبة الثانية العظمة للبرجوازية في الكالفنية مذهبها جاهزا ومفصلا ومخيطا. ومن هنا فقد اصبحت الكالفنية ـ حسب انجلز ـ ايديولوجية البرجوازية الثورية الاولى وعلى نطاق اوسع بكثير مما فعله ماكس فيبر. (لانكة، :246-247 1978). وقد كتب كارل ماركس ـ في هامش كتابه «رأس المال»، محددا العلاقة بين الاقتصاد البيوريتاني الكالفيني ونشوء الرأسمالية، بأن «البروتستانتية كانت قد لعبت دورا مهما في تكوين رأس المال عن طريق الغائها جميع المهرجانات التقليدية وتحويلها الى ايام عمل اعتيادية» (Marx, 1972:292). ويضيف ماركس قائلا «ولكن بقدر مايجمع المكتنز بين التقشف والعمل النشيط فانه يكون بالأحرى بروتستانتيا من حيث الدين، واكثر من ذلك بيوريتانيا». كما كتب ماركس في «أسس نقد الاقتصاد السياسي» قائلا «لعبادة رأس المال تقشفها الخاص، او نكران ذاتها الخاص، او تضحيتها الخاصة، الاقتصاد، والتوفير او احتقار ملذات العالم الآنية والعابرة والسعي وراء الكنز الذي لايفنى. ومن هنا تنشأ الرابطة بين البيوريتانية الانجليزية او البروتستانتية الهولندية وكسب المال» [4] (لانكة، :247 1978).

اما جيرهارد هاوك (Hauck, (1922:74 فقد كتب مفندا فرضية فيبر في اسبقية الذهنية البروتستانتية على نشوء رأسمالية المانيفكتورة، لأن الكالفنية، وفي مناطق عديدة في اوروبا، ليست اقدم عهدا من رأسمالية المانيفكتورة، وبصورة خاصة في الاراضي المنخفضة ـ هولندا وبلجيكا ـ ولذلك لايمكن ان تكون الكالفنية هي السبب في نمو الرأسمالية. كما ان فيبر لم يضع اية اهمية للمنافسة القوية التي اجبرت الرأسماليين الاوائل على تطوير تلك الذهنية الاقتصادية التي تدمج الربح بالتقشف، خصوصا ان الكالفنية كانت قد انتشرت انتشارا واسعا بين فئة التجار الصغار واصحاب المصانع، تلك الفئات

التي جابهت منافسة قوية من اصحاب التجارة الخارجية.

ومن جانب آخر فقد وجهت الى فيبر انتقادات اخرى لاتقل اهمية عن تلك التي انطلقت من التحليل المادي للتاريخ. ومن هؤلاء م. روبرتسون الذي اشار الى ان روح الرأسمالية لم تكن خالقة لطبقة من رجال الاعمال، بل العكس هو الصحيح، وان الانتداب الديني لم يكن سوى دعوة منظمة للحياة واداء لواجباته المفروضة على الناس من الاله. ولهذا فهو لايحتوي على أية رسالة من طبيعة رأسمالية. وما يؤكد ذلك هو ان الناس ليسوا بحاجة الى نداء ديني حتى يندفعوا لاحتياز الثروة دون التمتع بها، وبنفس الوقت فان فيبر على خطأ حين يفترض ـ بعكس التاريخ ـ أن الانتداب الديني يعني الشيء ذاته لدى جميع الناس بين القرنين السادس عشر والقرن العشرين. ويضيف روبرتسون فيقول بأن الكاثوليكية كانت قد فرضت ضربا من الزهد لايختلف من حيث النوع او المدى عما فرضته البروتستانتية. وقد خلص روبرتسون الى ان فيبر كان قد بالغ في اهمية البروتستانتية كعامل مولد للرأسمالية. ويشارك كورت ساموبلسن روبرتسون في احتجاجه على الانتداب الديني. فالاخلاق التي دعت اليها الكاثوليكية لاتختلف اختلافا شديدا عن تلك التي دعت اليها البروتستانتية. وان التغيرات التي حصلت في الثقافة الاوروبية، من تقدم اقتصادي وثقافي وابتعاد عن الكنيسة الكاثوليكية، كانت تتضمن نزعات لادينية، او على الاقل دنيوية. وهذا يعني ان الازدهار الثقافي والاقتصادي هو الذي ادى الى البروتستانتية وليس العكس. وبذلك فان كل الأدلة تتناقض مع آراء فيبر (تشوداك، 1970:224-228).

اما المدافعون عن مقولة فيبر فينطلقون من كون ان روح الرأسمالية لم تكن السبب الوحيد لنشوء الرأسمالية، وهذا ما اكد عليه فيبر نفسه. وحسب، فان فيبر حين يتكلم عن الكالفنية فانه يتكلم بصورة خاصة عن بعض الأوساط الكالفنية التي انتشرت قبل 150 سنة تقريبا (فروبند، 193:1976) وان «الخلق البروتستانتي كان احد مصادر تعقيل الحياة الذي اسهم في تكوين الروح الرأسمالية» (Weber, 1922:69). انه اذن «لم يكن السبب الوحيد او حتى الكافي للرأسمالية ذاتها» وبعبارة اخرى، كانت البروتستانتية عنصراً اذا ماحذفناه فكريا، فانه لايمنع دون شك من ظهور الرأسمالية، ولكنه يجبرنا على ان نتصور هذا التطور على شكل آخر (فروبند، 1976 :192). أما ريمون آرون فقد رأى بأن أهمية فيبر لاتكمن في العلاقة بين الذهنية الاقتصادية وبين نشوء الرأسمالية، وانما في الاسئلة التي يطرحها حتى وان لم تكن اجوبته عنها مرضية تماما (Aron, 1966:137f) في حين يكتب راينهارد بندكس بأن أهمية آراء فيبر تنبع من ايضاحاته حول النشاط الاقتصادي وتبني الطبقات التجارية الناشئة للمذهب البروتستانتي، حيث تخلت الكنيسة البروتستانتية عن التسامح الكاثوليكي وادخلت بدلا عنه قواعد شاملة تتحكم بالحياة الشخصية والعامة، وقد هبت البرجوازية للدفاع عنها.

وقد عبر بندكس عن اعجابه بمقولة فيبر، حيث قال بأنه «انجاز جبار في تبيان انتصار العقلانية المتقدمة» (تشوداك، 1970:229-230) اما بنيامين نيلسون الذي يعتبر من اشد المعجبين بآراء فيبر والمدافعين عنه فقد كتب بأن «الاخلاق البروتستانتية كما عرضها فيبر يجب ان لاتفسر تفسيرا ضيقا وكأنها حادثة محلية جرت في بروسيا، بل يجب اعتبارها تجليات لقوى ثقافية ووجودية تحفز البشر الى رؤى جديدة. وقد اشار تشوداك، بأنه على الرغم من الانتقادات التي وجهت الى نظرية فيبر، فانه جرى اختبارها مؤخرا واستخدمت في عدد من البحوث التي جرت على تنمية المجتمعات الاسيوية. وقد وجد روبرت بلابأن الديانة اليابانية كانت قد شجعت روح الكد والدأب فساهمت مساهمة فعالة في توليد روح المبادهة الاقتصادية التي انتجت بدورها عملية التصنيع في اليابان. اما كليفورد جيرتس فقد وصف ظواهر مشابهة للذهنية البروتستانتية في جزيرة جاوا الاندونيسية حيث ان قادة الاصلاح الديني المسلمين في جزيرة موتجو كوتو قد بثوا روحا ديناميكية فعالة ـ بعد تطهير الاسلام من الطقوس الصوفية والهندوسية وبعد استبدال القدرية الخانعة بروح تقدمية نحو التحقيق الذاتي وأظهرت اخلاقيات برجوازية متميزة (تشوداك، 1970:232).

أما بخصوص مقولة فيبر حول العقلانية فقد اكد فيبر مرارا على ان روح الرأسمالية لايمكن فهمها الا بوصفها جزءا من العقلانية الاوروبية التي تمتد جذورها الى الفلسفة الاغريقية. وقد حاول فيبر تبرير ذلك بتتبعه لأغلب الحضارات العليا والاديان العالمية ليبرهن على صدق مقولته في اصالة الحضارة الاوروبية وابراز عقلانيتها وفرادتها بين الحضارات الكبرى، منطلقا من اعتباران الحضارة الاوروبية تمثل حالة تاريخية فريدة، حيث يتجه المجتمع الاوروبي ككل وبقوة نحو تنظيم عقلاني رشيد في كافة اوجه النشاط الانساني. فالتطور والتقدم في اوروبا يأخذ مسارا عقلانيا رشيدا يقوم على تنظيم بيروقراطي رشيد تحكمه قواعد ومعايير شرعية وقانونية. ومن اهم اشكال هذا التنظيم العقلاني المشروع الاقتصادي الحر، والتنظيم الحديث للدولة الاوروبية الرشيدة، تلك التنظيمات العقلانية التي تميز فرادة الحضارة الاوروبية التي اتسمت بسمات معينة ومطلقة، وخاصة بها، والتي انتشرت اليوم في العالم الحديث. وحسب فيبر فان العقلانية الاوروبية لم تكن مقطوعة الصلة بكل قطاعات الحياة الاوروبية، فهي تمارس عملا مستمرا ومتطورا وناميا يتجاوز ذاته ودون انقطاع، في حين يصاحب الركود Stagnation باقي الحضارات غير الاوروبية (فروبند، 1976:132-134).

لقد انطلق فيبر من فكرة التمركز الاوروبي Eurozentrismus في تحيزه للحضارة الاوروبية وفرادتها وعقلانيتها. ومما لاشك فيه فان صفة التعقل لم تكن غائبة تماما عن الحضارات الشرقية ودياناتها الكبرى، الا ان فيبر كان قد اكد بأنها كانت قد عجزت ـ لاسباب عديدة ـ عن صياغة الادوات التقنية الكافية عن اتخاذ الوسائل والاساليب الكافية

لنمو اقتصادي وبيروقراطي اقوى. وكان على فيبر، منذ البداية ان يرى بأن الاسلام في عصره الاول وحتى القرن الحادي عشر كان قد وصل الى اوج التقدم والازدهار الاقتصادي، وقد برز كدين يدعو للتقدم والخلق والابداع، ولم يصبح الاسلام ديناً قدريا الا عندما دخل المسلمون مرحلة التفكك والركود والانحطاط (باران، 1981:431).

اما بالنسبة للبوذية والهندوسية والكونفوشيوسية فقد وضعت هذه الاديان اهمية كبرى للعقلانية لانها ديانات تقوم على الاعتقاد، وقد طورت طرائق منظمة للتنسك وبدرجة عالية، ذلك التنسك الذي مكنهم من تحرير انفسهم من كل الافكار والشهوات، وان ينظفوا ارواحهم من كل ادران الحياة على الارض وكذلك السيطرة على آلامهم. وهذه العقلانية لابد ان تقوم على تخطيط منهجي منظم لتوجيه الحياة نحو هدف معين. (Hauck, 1984:75).

وعودة الى الحوار الذي دار ولايزال يدور حول «شبح كارل ماركس» الذي اقلق فيبر، فانه بالرغم من ان فيبر لم يذكر كارل ماركس في كتبه، الا ان اطروحته «الاخلاق البروتستانتية وروح الرأسمالية» كانت موجهة ضده، وفي محاولة لتفنيد آرائه. وقد اشار فروبند بأن «هذا الكتاب كان ردا على الوثوقية السكولاستيكية للماركسية، بقدر ماكانت هذه تعتقد، بأن بأمكانها ان ترجع من الناحية الميتافيزيقية حوادث الحضارة كلها الى سبب واحد ووحيد هو العامل الاقتصادي» (فروبند، 1976:191). ولابد لنا من ان نشير بهذا الصدد الى انه بالرغم من ان فيبر لم يذكر ماركس بالاسم وفي كل كتاباته، الا انه ادعى ـ على لسان ابنته ماريانا ـ بأنه كان قد نقض المادية التاريخية (لماركس) في اطروحته عن «الاخلاق البروتستانتية وروح الرأسمالية» (Weber, Mariane, 1926:359) غير ان فيبر لم يتطرق الى الظروف والقوى الاجتماعية والوسائل التكنولوجية، ولذلك لم يستطع فيبر تقديم اي تفسير لتطور الاخلاق البروتستانتية سوى التفسير التاريخي. وعلى هذا الاساس فان حجة فيبر الموجهة اساسا الى ماركس لاتعتبر رفضا للماركسية ولامحاولة للبرهان على خطئها خطأ تاما، وانما تعتبر «غير كافية.. ومبالغاً فيها.. وذات جانب واحد.» (تشوداك، 1970:221).

ومع هذا وذاك فقد كان فيبر دقيقا جدا في حججه، بحيث انه حاول الخروج من «ادعائه» بسهولة حيث كرر بأنه «لايريد مطلقا ان يبدل تعصب المادية بتعصب الروحية، وانما حاول فقط ان يجعل الوجه الآخر من المدالية اكثر وضوحا». وبالرغم من ذلك فمن الصعب ان يوافق المرء على ان فيبر استطاع في اطروحته «الاخلاق البروتستانتية وروح الرأسمالية» نقض المادية التاريخية، «لأن الوجه الثاني من المدالية لم يكن سوى مادية رخيصة، ومن نوع بدائي» (Hauck, 1984:74).

اما آراء فيبر حول نمو العقلانية الاوروبية فتبقى تثير مزيدا من الاهتمام والمناقشة حيث وقع ماتنبأ به فيبر من توسع رهيب وملحوظ من العقلانية والبيروقراطية التي لايمكن تجاهلها اليوم (عودة، بدون تاريخ: 136). فالمجتمعات الصناعية الحديثة، وبصورة خاصة الرأسمالية، تثير اليوم من جديد تساؤلات عديدة حول القضايا التي طرحها ماكس فيبر والتي تتمثل في هذا التطور الهائل في حجم وكثافة وتعقد الاجهزة البيروقراطية وتعقد الطرق والاساليب التكنولوجية وتعاظم قدرة التنظيمات العقلانية الضخمة التي اصبحت اليوم تتحكم في الدول والشعوب وتسيطر عليها من خلال وسائل الدعاية والاعلان وتحولها الى مجتمعات استهلاكية (Horckhiemer & Adorno, 1982:108f).

وهذه التساؤلات كانت قد طرحت من قبل اعضاء مدرسة فرانكفورت في علم الاجتماع النقدي منذ نصف قرن تقريبا، وبعد ان تفاقمت خطورة تعقد التنظيمات العقلانية والاجهزة البيروقراطية والسلطة التكنوقراطية الجديدة. لمعالجة هذه التطورات السلبية التي رافقت نمو العقلانية التكنيكية الضيقة التي تعيق اليوم، بل تمنع أية محاولة لظهور مجتمع عقلاني منور، عقلانية نقدية، غير عقلانية فيبر البيروقراطية التي «حولت العالم كله الى مجرد مادة، مثلما حولت عقيدة كالفن اللاعقلانية، العالم كله الى كلية عقلانية» (Horckheimer, 1986: 96).

الهوامش

1) البيوريتانية Puritanismus حركة دينية طهرية قامت في إنجلترا عام 1560 على الفضيلة والتقشف. والبيوريتاني، هو الرجل الذي يستطيع أن يقود حياته وفق نظام صارم في الحياة.

2) لقد كتب كارل ماركس «رأس المال» عام 1886، أما ماكس فيبر فقد كتب «الاخلاق البروتستانتية وروح الرأسمالية» عام 1905.

المصادر العربية

باربان، ب. ولاكوست، أ.

1981 الاقتصاد السياسي للتخلف. (مترجم). بيروت: دار الطليعة.

تشوداك، س.

1970 النمو المجتمعي، خمسة منطلقات مع نتائج التحليل. (ترجمة: عبدالحميد الحسن). دمشق: منشورات وزارة الثقافة والارشاد القومي.

فروريند، ج.
1976 علم الاجتماع عند ماكس فيبر. (ترجمة: تيسير شيخ الارض). دمشق: منشورات وزارة الثقافة والارشاد القومي.

لانكة، أ.
1978 الاقتصاد السياسي، الجزء الاول. (ترجمة: محمد سلمان حسن). بيروت: دار الطليعة.

عودة، م.
بدون تاريخ أسس علم الاجتماع. بيروت: دار النهضة العربية.

المصادر الاجنبية

Aron, R.
1966 La Sociologie Allemande Contemporaire. Paris: PUF.

Hauck, G.
1984 Gesehiehte der Soziologischen Theorie, Eine Ideologische Einführung. Hamburg: Rowohlts Enzyknopädie.

Horckheimer, M.
1986 "Vernunft und Selbsterhaltung." in Kritische Theorie, Bd. 1. Frankfurt.

Horckheimer, M. & Adorno, T.
1982 Dialektik der Aufkläung. Frankfurt: Ficher Verlag.

Marx, K.
1972 Das Kapital, Bd. 1: Der Prodoktions-prozess des Kapital. Berlin: Dietz Verlag.

Philosophisches Wörterbuch
1965 Stuttgart: Kroner Verlag.

Schluchter, W.
1984 Max Webersicht des Islam, Interpritation und Kritik, Frankfurt: Hg. Suhrkamp - Wissenschaft.

Von Wiese, L.
1960 Soziologie, Geschichte und Hauptprobleme. Berlin: Gruyter Verlag

Weber, Mariane.
1926 Max Weber, Ein Lebensbild. Tübingen.

Weber, Max.
1920 Gesammelte Aufsätze zur Religionssoziologie, Bd. I.- III. Tübingen.
1922 Die Protestantische Ethik und der Geist des Kapitalismus. Tübingen.